

دلائل الإعجاز

نفس الإنسان أولاً ثم تقع المعاني من بعدد لها وتالية لها بالعكس مما يعلمه كل عاقل إذا هو لم يأخذ عن نفسه ولم يضرب حجاب بينه وبين عقله . وليت شعري هل كانت الألفاظ إلا من أجل المعاني وهل هي إلا خدم لها ومصرفة على حكمها أو ليست هي سمات لها وأوضاعاً قد وضعت لتدل عليها فكيف يتصور أن تسبق المعاني وأن تتقدمها في تصور النفس إن جاز ذلك جاز أن تكون أسامي الأشياء قد وضعت قبل أن عرفت الأشياء وقيل أن كانت . وما أدري ما أقول في شيء يجر الزاهبين إليه إلى أشباه هذا من فنون المحال وردية الأفعال ! وهذا سؤال لهم من جنس آخر في النظم : قالوا : لو كان النظم يكون في معاني النحو لكان البدوي الذي لم يسمع بالنحو قط ولم يعرف المبتدأ والخبر وشيئاً مما يذكرونه لا يتأتى له نظم كلام . وإن نراه يأتي في كلامه بنظم لا يحسنه المتقدم في علم النحو . قيل : هذه شبيهة من جنس ما عرض للذين عابوا المتكلمين فقالوا : إن نعلم أن الصحابة رضي الله عنهم والعلماء في الصدر الأول لم يكونوا يعرفون الجوهر والعرض وصفة النفس وصفة المعنى وسائر العبارات التي وضعتها . فإن كان لا تتيم الدلالة على حدوث العالم والعلم بوحداية إلا لا بمعرفة هذه الأشياء التي ابتدأتها فينبغي لكم أن تدعوا أنكم قد علمتم في ذلك ما لم يعلموه وأن منزلتكم في العلم أعلى من منازلهم . وجوابنا هو مثل جواب المتكلمين وهو أن الاعتبار بمعرفة مدلول العبارات لا بمعرفة العبارات فإذا عرفت البدوي الفرق بين أن يقول : جاءني زيد ركباً وبين قوله : جاءني زيد الركب لم يضره أن لا يعرف أنه إذا قال : " ركباً " كانت عبارة النحويين فيه أن يقولوا في " ركب " إنه حال . وإذا قال : " الركب " إنه صفة جارية على زيد وإذا عرفت في قوله : زيد منطلق أن زيدا مخبر عنه ومنطلق خبر لم يضره أن لا يعلم أن زيدا نسي زيدا مبتدأ . وإذا عرفت في قولنا : ضربته تأديباً له أن المعنى في التأديب أنه غرضه من الضرب وأن ضربته ليتأديب له لم يضره أن لا يعلم أن نسي التأديب مفعولاً له ولو كان عدم العلم بهذه العبارات يمنعه العلم بما وضعناها له وأردناه بها لكان ينبغي أن لا يكون له سبيل إلى بيان أغراضه وأن لا يفصل فيما يتكلم به بين نفي وإثبات وبين " ما " إذا كان استفهاماً وبينه إذا كان بمعنى الذي إذا كان بمعنى المجازاة لأنه لم يسمع عباراتنا في الفرق بين هذه المعاني

